دور لوحات المصورين المستشرقين في توثيق تراث مصر المعماري

د. لبنى صالح عبد المولى سليمان

رابط التعريف الرقمي (DOI) [10.47288/TWCJ.2022.V07.ISS13.A02](https://doi.org/10.47288/TWCJ.2022.V07.ISS13.A02)

الملخص

يتناول هذا المقال دور لوحات المصورين المستشرقين في توثيق تراث مصر المعماري وما قدمته هذه اللوحات والدراسات الاستشراقية المصورة من دور كبير في خدمة المجال الأثري والمعماري في مصر، ومن هنا توجب على دارسي الآثار والعمارة الرجوع لتلك الدراسات واللوحات الاستشراقية والاعتماد عليها بشكل كبير في دراسة العمائر ومعرفة الأجزاء والعناصر التي كانت موجودة وتلاشت وتلفت بفعل عوامل الزمن، ويُعد التصوير من أهم الوثائق والشواهد التاريخية التي حفظت لنا التاريخ في هيئة مصورة وذلك قبل اختراع وسائل التصوير الحديثة، وبغض النظر عن صفة المستشرقين التي جاءوا عليها للشرق فإن تصاويرهم تعد من أدق وأعظم التصاویر التي لعبت دور كبير في حفظ التفاصيل التاريخية والحضارية في هيئة مرئية، فقد قام المستشرقون بدور هام وبارز في خدمة الدراسات الأثرية والمعمارية.

الكلمات الدلالية

معماري ، لوحات ، مستشرقين ، تراث ، آثري

اهتم الغربيون منذ القرن الثامن عشر الميلادي وحتى منتصف القرن العشرين بزيارة مصر والرحيل إليها واستكشافها وذلك في إطار مشاريعهم السياسية والاستعمارية بل والاقتصادية، حيث كانوا يقيمون بمصر فترات طويلة قد تصل لسنوات لكل منهم هدف خفي وآخر معلن كالاستجمام والاستشفاء والدراسة والسياحة ومشاهدة الآثار المصرية القديمة والإسلامية، التي زاد الاهتمام بها بعد ظهور موسوعة وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية أوائل القرن التاسع عشر، ومنهم من كان ليس لديه دوافع أو أهداف سوى الدراسة والفن ككثير من المصورين، وقد اعتنى علماء أوروبا وأمريكا بالآثار والعمارة في مصر وجاءوا إلى مصر لإجراء دراساتهم وأبحاثهم وتنقيباتهم عن الآثار في القرن 19م، فكان بداية مولد علم المصريات، الذي أعتنى به العلماء أمثال البريطاني سير جاردنر وليكنسون، والفرنسي إميل بريس دافين، وغيرهم الكثير من علماء الغرب المعنيين بالعمارة والذين وجهوا جُل اهتمامهم أثناء تواجدهم في مصر إلى الآثار والتراث المعماري ودراسته (1).

والحقيقة إن للدراسات الاستشرافية -رغم رفض الكثير لها- دور هام وبارز في خدمة الشرق في بعض الجوانب، وإن كانت هذه الدراسات لها جوانب سلبية كثيرة، فقد تم عملها من أجل خدمة المصالح الاستعمارية للدول الغربية في الشرق، إلا إنه من المجحف أن ننكر الدور الإيجابي لتلك الدراسات والذي خدم الشرق في مجالات كثيرة، - فهي بمثابة النفع الذي يأتي من الضرر - وإن كنت أرى أن تلك الخدمات وذاك الدور الإيجابي من قبل المستشرقين للشرق لم يكن عن قصد، بمعنى أن المستشرقين أثناء قيامهم بتلك الدراسات لم يكن قصدهم خدمة الشرق وإفادته بشكل أو بآخر، ولم يعينهم أمر الشرق مطلقاً، ولكن - ودون قصد- تنشأ الأقدار أن تحمل تلك الدراسات بين ثناياها فائدة كبيرة للشرقيين، والتي بدأ الباحثون لمس جوانبها في العصر الحديث (2).

وتوجد العديد من الدراسات الاستشرافية التي قدمت خدمات جليلة للدراسات الأثرية بصفة عامة والتراث المعماري بصفة خاصة، فقد كانت مصر بتراتها المعماري الكبير وتاريخها العريق وتنوع الآثار بها التي تضم عمائر حضارات متنوعة ومختلفة محل اهتمام العلماء والباحثين الغربيين الذين قدموا لنا العديد من الدراسات التي تُعنى بالآثار والتراث المعماري المصري القديم والإسلامي على السواء، سواء في هيئة مؤلفات، أو رسوم وتخطيطات واسكتشات، أو تصاوير.

والحقيقة أن لوحات المستشرقين تُعد وثائق مصورة غاية في الأهمية حيث تحفظ لنا ملامح تراثنا الأثري والمعماري، كما أن هذه اللوحات تعتبر وثائق وقرائن داعمة ومؤكدة لكافة الروايات التاريخية التي تتناول تراثنا المعماري.

ويُعد التصوير من أهم الوثائق والشواهد التاريخية التي حفظت لنا التاريخ في هيئة مصورة وذلك قبل اختراع وسائل التصوير الحديثة، وبغض النظر عن صفة المستشرقين التي جاءوا عليها للشرق فإن تصاويرهم

¹ لبنى صالح عبد المولى، مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر في القرنين (13-14/19-20م) في ضوء تصاوير المستشرقين "دراسة أثرية فنية"، مخطوط رسالة دكتوراة، كلية الآثار جامعة الفيوم، 2021م، ص 1044.

² المرجع السابق، ص 1044.

تعد من أدق وأعظم التصاوير التي لعبت دور كبير في حفظ التفاصيل التاريخية والحضارية في هيئة مرئية، فقد قام المستشرقون بدور هام وبارز في خدمة الدراسات الأثرية، فقدمت تصاوير المستشرقين خدمات جليلة للدراسات الأثرية المعمارية، فتُعد هذه التصاوير مرجعاً مصوراً لكثير من التفاصيل الخاصة بالآثار، فقد قام المستشرقين بتصوير روائع العمارة في مصر التي أبهرت أنظارهم، حيث حملت هذه التصاوير تفاصيل دقيقة لرسم العماائر بشتي أنواعها، ورُسمت هذه العماائر بواقعية شديدة فسجلت لنا فرشوات الفنانين الواجهات المعمارية للمباني بكافة تفاصيلها، ورسم المآذن التي جذبت أنظارهم وكذلك رسم الزخارف التي كانت تزين تلك العماائر⁽³⁾.

ومن أشهر المصورين الذين تعد لوحاتهم سجلاً للعمارة في مصر والذين كان كثير منهم معماريون في الأساس بالإضافة إلى موهبتهم في الرسم المصور الفرنسي باسكال كوست، والإنجليزي دافيد روبرتس، والفرنسي بروسبير ماريلا، وإيميل بريس دافين وتوماس ألوم وإدوارد لير وجان ليون جيروم وغيرهم الكثير، والحقيقة أن هذه التصاوير وثقت لنا التفاصيل الدقيقة لهذه العماائر والتي تلاشي وتلف الكثير منها في الوقت الحالي فيمكن الرجوع إلي تلك اللوحات المصورة للوقوف على شكل المنشآت المعمارية ومعرفة ما طرأ عليها من تغيير وما كانت عليه منذ قرنين من الزمان مع بداية انتشار الرسم الاستشراقي والذي بدأ يزداد منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي وبلغ ذروته في منتصف ذلك القرن.

وإذا تطرقنا إلى المؤلفات الاستشراقية التي احتوت على لوحات مصورة لأثارنا المعمارية والتي نفذاها أشهر المصورين المستشرقين، سنجد أن من بواكير تلك الدراسات موسوعة وصف مصر، فقد كانت موسوعة وصف مصر من أهم المؤلفات الاستشراقية التي احتوت على لوحات مصورة غاية في الأهمية وفي دقة التنفيذ للعماائر المصرية القديمة والإسلامية، وبالرجوع لتلك الموسوعة يمكن معرفة الكثير عن تلك العماائر التي قام علماء الحملة الفرنسية مطلع القرن التاسع عشر الميلادي بتنفيذها، وعن الدور الذي قامت به تلك الموسوعة في خدمة دراسة الآثار، فقد ضمت عدد كبير من التصاوير لأثار مصر القديمة والإسلامية ودراسات مفصلة لتلك الآثار وأوضاعها في تلك الفترة، مع وصف دقيق لكل أثر مصحوباً بالتصاوير التي نفذاها رسامي ومصوري الحملة الفرنسية وذلك قبل اختراع التصوير الدايجيري بما يقرب من 40 عام، وتُعد هذه الموسوعة بما تضمنه من دراسات لأثار مصر بمختلف حقبةا التاريخية مرجع رئيسي لا غني عنه لدارسي الآثار في مصر يوضح لهم وضع أثار مصر في تلك الفترة وما كانت عليه وقتذاك⁽⁴⁾، كذلك يمكن لدارسي العمارة التعويل عليها وعلي ما تضمنه من تصاوير للعماائر وحالتها في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي وعناصرها المعمارية، حيث أن كثير

³ ودیعة بنت عبد الله بن أحمد، دور المصورين المستشرقين في حفظ التراث العربي في القرن 19م، مجلة العمارة والفنون، العدد العاشر، ص 795.

⁴ للمزيد أنظر: علماء الحملة الفرنسية (الكونت دي شابرول)، موسوعة وصف مصر- عادات المصريين المحدثين، ترجمة زهير الشايب، مكتبة الأسرة، د.ط، القاهرة، 2002م، مقدمة الجزء الأول، ص 8- 11.

من تلك العناصر المعمارية قد اندثرت من هذه العمائر، ولكن لوحات المستشرقين ظلت شاهدة على وجود تلك العناصر قبل قرنين من الزمان، والأمر ليس مقصوراً على موسوعة وصف مصر فقط، ولكن هناك العديد من الدراسات التي تحوي بين دفتاتها مئات من اللوحات المصورة والتي افادت في حفظ تراثنا المعماري ومنها على سبيل المثال بعض المؤلفات التي نفذها عدد من المستشرقين الإنجليز والفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر والذين قدموا مؤلفات خدمت مجال الآثار بصفة عامة والعمارة بصفة خاصة، ومن هذه المؤلفات كتاب "مصر والنوبة - Egypt and Nubia" الذي قدم فيه المصور المستشرق الإنجليزي دافيد روبرتس دراسة هامة مصحوبة بالتصاویر لآثار مصر والنوبة المصرية القديمة والإسلامية، يمكن لدارسي العمارة الرجوع إليها والتعويل عليها في دراسة العمارة في تلك الفترة (النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي)، وقد صدر هذا المؤلف لدافيد روبرتس في لندن عام 1846م، والذي يضم لوحات ملونة للآثار من تنفيذ دافيد روبرتس (5)، هذا فضلاً عن تصاویر دافيد روبرتس وما خلفه من كتالوجات مصورة وتخطيطات أولية لآثار مصر القديمة والإسلامية فتعد تصاویره لمساجد القاهرة وثائق مصورة غاية في الأهمية للمعنيين بدراسة العمارة الدينية بمدينة القاهرة حيث أن دافيد روبرتس أول فنان مستشرق أتيح له دخول المساجد ورسمها من الداخل وتسجيل تفاصيلها المعمارية لنا بكل دقة وقت رسمها، وذلك في الوقت الذي كان المستشرقين والأجانب ممنوعين من دخول المساجد (6).

ومن المستشرقين الذين خدموا الآثار الإسلامية ووثقوا لنا تراث مصر المعماري المستشرق الفرنسي باسكال كوست الذي كان مهندساً معمارياً بارعاً استدعاه محمد علي باشا لإنشاء مصنع للبارود والمفرقات في مصر، فقام بعدة أعمال خدمت مجال الآثار، فقد قام -بناءً علي رغبة محمد علي باشا- بتسجيل الآثار الإسلامية (7)، كما قام بترميم العديد من الآثار الإسلامية كذلك قام بعمل تخطيطات ورسومات لتلك الآثار قبل قيامه بترميمها، وأيضاً قام بعمل العديد من الكتالوجات التي تحوي عدد ضخم من اللوحات المصورة المطبوعة بطريقة الحفر، كذلك ضمت كتالوجاته العديد من الرسوم الملونة التي من تنفيذها وتوجد هذه الكتالوجات والتصاویر ضمن مؤلفه الكبير "العمارة الإسلامية أو آثار القاهرة 1837-1839م" (8)، وقد كان لهذه الرسوم والتخطيطات والتصاویر التي جاءت في فترة مبكرة من القرن التاسع عشر دور كبير في خدمة دارسي الآثار والمعنيين بدراسة العمارة الإسلامية لما تضمنه هذه الدراسات من أشكال للآثار والعمائر وقتذاك ومعرفة كثير من العناصر التي لم تعد موجودة الآن، كذلك من أعمال المستشرقين التي خدمت مجال الآثار المعمارية المصرية القديمة والإسلامية ما خلفه المستشرق الفرنسي إيميل بريس دافين الذي كرس جل وقته الذي أقامه في

⁵ أنظر كتاب: David Robrtes، Egypt and Nubia، London، 1846

⁶ ثروت عكاشة، مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء، دار الشروق، الطبعة الثانية، القاهرة، 2003م ج2، ص 264.

⁷ نهلة فخر محمد، دراسة لبعض آثار مدينة القاهرة في أعمال الرحالة الأوروبيين خلال القرون من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ص 16.

⁸ أنظر كتاب: Pascale Coste، Architecture Arabe ou Monuments du caire، 1837-1839.

مصر لدراسة آثار مصر وعمل رسوم أولية وتخطيطات لها، ثم لوحات مصورة عديدة، فتعد كُتبه أشهر كُتب مصورة عن الآثار الفرعونية والإسلامية في مصر في القرن التاسع عشر، فقد كتب بريس دافين عدد من المؤلفات التي تضم كتالوجات مصورة وتخطيطات لآثار مصر القديمة والإسلامية (9)، منها كتابه "الآثار المصرية وتاريخ الفن المصري" وكتابه الضخم "الفن العربي من واقع آثار مصر من القرن السابع إلى نهاية القرن الثامن عشر" (10).

والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن تلك الأعمال الاستشرافية المصحوبة بالتصاویر وكذلك العديد من الكتالوجات والألبومات والاستكشافات وما تحمله من لوحات ملونة وتخطيطات أولية لآثارنا المعمارية أفادتنا كثيراً في دراسة آثارنا المعمارية وكذلك حفظت لنا ملامح تراثنا المعماري منذ قرنين من الزمان، وأن هذه الأعمال رسم العديد منها بواقعية شديدة تكاد تطابق الواقع، حيث أن معظم المستشرقين الذين أهتموا بالآثار في مصر ورسّمها تميزوا بالواقعية الشديدة والدقة في رسومهم وأن أغلبهم لم يكن له أهداف أتى من أجلها سوى الهدف الفني واستكشاف مواطن جديدة يستلهم منها موضوعات جديدة، ونظراً لأهمية تلك اللوحات الاستشرافية فقد كانت لجنة حفظ الآثار العربية ترجع لهذه اللوحات في كثير من الأحيان عند قيامها بترميم أو إصلاح وتجديد المنشآت الأثرية لما تحمله هذه اللوحات من تفاصيل دقيقة فُقدت من العنائر بمرور الزمن.

والحقيقة أنه يتوجب على الباحث أن يدقق فيما أتى به المستشرقين فلم يكن جميعهم واقعيين محايدین منصفين، فقد وجد العديد منهم الذي جاء لأهداف وأغراض أخرى غير الهدف الفني، ولنتفق أن ليست كل لوحات المستشرقين دقيقة وكل ما تحمله من تفاصيل واقعية، وهذا أمر طبيعي لأن من ينفذ هذه اللوحات فنان تغلب عليه الروح الفنية التي غالباً ما تظهر بعض اللامسات الفنية من وحي خياله الفني داخل اللوحات، ولكن الباحث الواعي المدقق يستطيع أن يتعرف على العناصر الدخيلة غير الواقعية داخل اللوحة وكذلك يستطيع التمييز بين الأسلوب الواقعي والأسلوب غير الواقعي، وكما سبق ذكره أن جُل المصورين المستشرقين الذين اهتموا بالجانب الأثري المعماري تميزوا بصفة عامة بالواقعية والدقة في نقل التفاصيل مما يجعلنا مطمئنين إلى ما جاءوا به وما تحمله لوحاتهم من ملامح تراثنا المعماري المصري العريق.

⁹ أنظر كتاب: E. Priss d'Avennes - L'art arabe d'après les Monuments du kaire، 1874.

¹⁰ ثروت عكاشة، مصر في عيون الغرباء، ج1، ص 205.

المراجع

- ثروت عكاشة، مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء، دار الشروق، الطبعة الثانية، القاهرة، 2003م ج2.
- علماء الحملة الفرنسية (الكونت دي شابرول)، موسوعة وصف مصر- عادات المصريين المحدثين، ترجمة زهير الشايب، مكتبة الأسرة، د.ط، القاهرة، 2002م، الجزء الأول.
- لبنى صالح عبد المولى، مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر في القرنين (13-14هـ/19-20م) في ضوء تصاوير المستشرقين "دراسة أثرية فنية"، مخطوط رسالة دكتوراة، كلية الآثار جامعة الفيوم، 2021م.
- نهلة فخر محمد، دراسة لبعض آثار مدينة القاهرة في أعمال الرحالة الأوروبيين خلال القرون من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة.
- وديعة بنت عبد الله بن أحمد، دور المصورين المستشرقين في حفظ التراث العربي في القرن 19م، مجلة العمارة والفنون، العدد العاشر.
- David Robrtes, Egypt and Nubia, London, 1846.
- E. Priss d'Avennes, L'Art Arabe d'apres les Monuments du Kaire, Paris, 1874.
- Pascale Coste, Architecture Arabe ou Monuments du Kaire, Paris, 1837.